تجليات الأنا وتمثلات الآخر في الرواية الإفريقية
(رواية الاشياء تتداعى لـ: تشينوا أتشيبي أنموذجا)

أ / محمد زكور
جامعة جيجل

مقدمة:

تزايد الاهتمام وتنامتالدراسات الأكاديمية (بمختلف مشاربها: الأدبية، الاجتماعية، الثقافية...) في أيامنا هاته في محور أدبي ونقدي هو(الدراسات الصورولوجية) وقد جاء ذلك في اطار التطورات المتسارعة التي عاشتها المعمورة خاصة بعد أحداث الحادي عشر سبتمبر والتي دفعت بالكثير من الباحثين الغربيين للنبش والتقصي حول هذا الآخر الذي بات يهدد كيانها ويقض مضجعها. تقدم لنا دراسة صورة الآخر أثر العلاقة التاريخية بين الأنا والآخر ،ونحن اليوم أحوج ما نكون لدراسة الصورة الأدبية التي شكلها التراث المتداول عبر الأجيال للآخر، وفي الوقت نفسه دراسة الصورة التي رسمها الأدب لآخر، دون أن نغفل عن دراسة صورة الأنا في أدب الآخر.

1- ارهاصات الدراسة الصورلوجية:

لو تأملنا بدايات هذا الفرع من فروع الأدب المقارن لوجدناها تعود أساسا إلى الرغبة في معرفة الآخر على حقيقته، وتوضيح سوء الفهم له، ففي النصف الأول من القرن التاسع عشر قامت الأديبة الفرنسية المعروفة" مدام دو ستال" [1] بزيارة طويلة لألمانيا، وذلك في وقت تصاعد فيه العداء وسوء الفهم بين الشعبين الفرنسي والألماني، وأثناء الإقامة فوجئت الأديبة بمدى سوء الفهم والجهل الذي يعاني منه الفرنسيون لألمانيا، رغم الجوار الجغرافي، فقد تحقق لها أن الفرنسيين يجهلون أبسط الأمور المتعلقة بالمجتمع والثقافة والأدب والطبيعة في ألمانيا، فرسموا

هاهم صورة لشعب فظ غير متحضر، يتكلم لغة غير جميلة، ليس له إنجازات أدبية أو ثقافية تستحق الذكر، إنها باختصار "**صورة يرسمها شعب لشعب آخر يعدّه عدوا له**"[2].

وهكذا استطاعت (مدام دو ستال) عبر رحلتها أن تكتشف الحقيقة التي تم تزويرها للآخر، فلمست عبر التجربة الحية والمعايشة اليومية تمتع الشعب الألماني بمناقب جمة (الطيبة والاستقامة والصدق) كما فوجئت بجمال الطبيعة لاسيما نهر الراين والغابة السوداء، وبغنى الأدب الألماني والمستوى الرفيع الذي بلغته الفلسفة الألمانية، وبذلك لم تركن الأديبة للصورة المألوفة عن الآخر، بل "حاولت معرفة الآخر عبر خبرتها الخاصة، فاقتربت بعقلها وروحها من الآخر الذي أبعدته العداوة وسوء الفهم، واستطاعت أن تقرّبه من صورته الحقيقية بفضل بحثها الذاتي عن الحقيقة" [3] .

2- تجليات الأنا في الآداب القومية:

في هذا النوع من الصور تتحدث الأنا عن الأنا وتبحث عن هدف قومي لا يتناقض مع الغاية الإنسانية، بل هو الطريق إليها، وهنا نجد الأديب "لا يتعدى إطاره القومي واللغوي، فهو إذن يبحث عن فنيات الأديب في طرق موضوعه، أو فنيات الأدباء بالوصف والتحليل مثل صورة الفرنسيين أدبهم أو صورة المرأة الألمانية لدى أديب ألماني، أو صورة المرأة في روايات نجيب محفوظ أو الأدب المصري عموما"[4] ومنه ندرك أن أي أديب يصور مجتمع ما ون أدرى به وأكثر إحاطة بعاداته وتقاليده لأنه يرتبط به في شتى المجالات: الاجتماعية ، والنفسية، والأخلاقية، وبهذا تكون الصورة حينئذ أقرب إلى الحقيقة. إن الشعب الذي يرى صورته من خلال الأعمال التي ينتجها أدباؤه تترسخ في ذهنه مجموعة من الصور بحيث " ، هذه الصور على بعد معرفي مؤثر يضيف إلى وعي الجماعة بذاتها بل يسهم في تشكيل هذا الوعي، فيصبح التعرف المصاحب لتأمل صور المرأة مقدمة للفعل الخلاق وباعثا على التغيير نحو الأفضل"[5] أي أن الشعب يكتشف نفسه من خلال الأعمال التي أنتجها

الأدباء الذين يمثلونه، فيكشف عيوبه ويتغير نحو الأفضل وهذا بفضل التطلع على الآداب المحلية.

3- تمثيلات الآخر في مرايا الأنا :

يحمل كل شعب صورة عن الشعوب الأخرى، والأدباء "الذين تحدثوا عن صورة ب يحددون بأنهم يقصدون بصورة الشعب كل ما في الذهن حول ذلك الشعب"[6] وبالتالي فقد يكون تأثر أديب ما بشعب آخر نتيجة زيارته لهذا البلد أو ما سماعه عنه، أو ما قرأه من آدابه ، وبذلك يرسم صورة لهذا الشعب ترسخ في أذهان قومه ومثال ذلك:"إسبانيا في أدب(هيمنجواي) أو بريطانيا في أدب (فولتير)، أو صورة الشرق في أدب (فيكتور هوغو)، أو ايطاليا في أدب(ستندال)"[7] ونستخلص هنا وجود التباين اللغوي والقومي والحضاري وبالتالي هذا الشعب لا يقرأ إلا ما كتبه أدباؤه عن الشعوب الأخرى، فيحتفظ بتلك الصورة التي رسمها له أولئك المؤلفون وبعد ذلك تصبح تلك الصورة نمطية تحتفظ بها الذاكرة، وفي هذا الصدد يقول (غويار):" ثمة أمر آخر، كل فرد، وكل جماعة، بل كل بلد، يختصر النظرة إلى البلد الآخر حيث لا يبقى إلا مجرد خطوط كبرى لماحة...فليس ثمة ألمانيا، بل ألمانيا"ميلشية"، وألمانيا الفلاسفة، وألمانيا الفرنسيين، وكلما اتسعت الجماعة ازداد إمكان اختصار الخطوط المكونة عن البلد الآخر وصارت النظرة كاريكاتورية لافتة"[8]،أي انه يرى أن الصور التي يحملها شعب ما عن شعب آخر تكون بعيون أدبائه ومؤلفيه وفلاسفته وباحثيه، وهذه الصور تختصر حتى تصير مجرد ملامح وسمات راسخة في أذهان هذا الشعب، وكلما اتسعت الجماعة وتضاعف عدد أفرادها، ازداد إمكان اختصار الخطوط المكونة عن هذا البلد الآخر،وتقلصت ، الصور حتى تصير نظرة كاريكاتورية لافتة وهنا يقال عن شعب ما أنه يتصف بهذه الصفة، وشعب آخر يتصف بتلك الميزة،"منها في فرنسا مثلا:إشاعة أن البرتغاليين شعب سعيد، وثمة ظواهر أعمق،الفرنسي ليس مهيأ لتقبل المزاج الانجليزي و الألماني" [9]

4– ثنائية (الأنا –الآخر) في الأعمال الروائية:

تجسدت هذه الثنائية الجدلية ضمن كثير من الروايات حيث" **انه ليس من قبيل الصدفة أن تكون أول رواية عربية مستكملة للشرط الفني هي رواية "عودة الروح" لتوفيق الحكيم، وهي رواية تخصص صفحات مركزية لمشكل لقاء الحضارات**"[10] وهنا نجد جدلية الاختلاف بين الأنا والآخر تكمن في الثقافة والدين واللغة والعرق، وذلك عندما التقت الأنا بالآخر، واصطدمت به رأت الأنا ذاتها من خلال صورة الآخر، وهذا الآخر لفت انتباه الأنا بصورته سواء كان غازيا أو سائحا أو عاملا، و" مع التغلغل الاستعماري في العالم العربي الإسلامي قصد التحكم فيه سياسيا واستغلاله اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، وإضعافه عسكريا، وإعلاميا، وتغريبه دينيا وحضاريا، وتشكيكه عقديا وفكريا...طرحت إشكالية الشرق والغرب فكرا وإبداعا، وتخيلا، فعرضت على مائدة النقاش والبحث، والجدال الواسع، ولا سيما ثنائية التقدم والتخلف، ثم برزت أيضا عبر ذلك عقدة النقص العربي أمام تفوق الإنسان الأوربي واضحة للعيان في الكتابات السردية العربية الأولى بالخصوص"[11]

وقد حملت معظم الأعمال الأدبية شحنة عدائية تجاه الآخر، هذا الآخر الذي يستهين بالأنا ويحتقره، مما أدى إلى اصطباغ الكثير من الأعمال الروائية العربية بشيء من الصراع والمبالغة فـ"الأخر يبقى في معظم النصوص الروائية العربية عدوانيا بدرجة أولى، إذ لا توجد علاقة بالآخر إلا على قاعدة غالب ومغلوب، وبدون هذه القاعدة يضمحل الآخر ويصبح عدما، ومعلوم أن العلاقة بين الشرق والغرب قائمة على هذا المبدأ الذي تمثله النصوص الروائية العربية الحديثة، كرواية "الوقائع الغريبة لاختفاء سعيد أبي النحس المتشائل" لـ "إيمي جيبي" و "اللاز" للطاهر وطار، وعدد من نصوص نجيب محفوظ ، و"السفينة" لجبران خليل جبران، وغيرها كثير"[12].

5– الرواية الاستعمارية و الرواية الافريقية لما بعد الاستعمار(ما بعد الكولونيالية):

تزامن ظهور الرواية الاستعمارية مع نشأة الاستعمار الحديث وتوسعاته، حيث نجد انها "تطورت ونمت وعانقت أشكالا جمالية مختلفة في إطار من التفاعل مع النزعة الامبريالية التي كانت سائدة آنذاك، إذ قدمت صورة لعالم مركزه الغرب المتعالي اجتماعيا، وسياسيا، وثقافيا، "[13] وذلك بشكل إيحائي ورمزي غير مباشر بين الغربي وغيره، وفي هذا السياق تعتبر رواية:(روبنسن كروزو robinson crusoe) لـ:(دانيال ديفو Daniel Defoe) 1791، إحدى النماذج المبكرة للرواية الغربية الحديثة، والتي يمكن اعتبارها عاملا من العوامل التي ساهمت في صوغ الهوية الثقافية ،وذلك لقدرتها على تشكيل التصورات العامة عن الشعوب، ومختلف التحولات الثقافية، وفي ذلك يكشف ادوارد سعيد عن "علاقة التواطؤ التي قامت بين الرواية والقوى الاستعمارية خلال القرن التاسع عشر"[14] بتحليله لروايات (كيبلينغ Kipling)- (كامو Camus)، و(كونراد Conrad) في روايته المشهورة "بقلب الظلام" (Heart of Darkness) حيث نجدها "مكتظة بالإشارات العنصرية للإفريقيين فهم متوحشون، وبرابرة تربطهم بالإنسان الأوربي، روابط قديمة كأنها ذكريات من أزمنة سحيقة وعصور ما قبل التاريخ، ولا تحكم الأفارقة في رأيه أية قوانين وأعراف، وهم لا يتمتعون بأي قدر من الانضباط، كما أنه يستخدم إفريقيا كصورة رمزية للشر... فهي قلب الظلام الذي يعود بالإنسان الأوربي المتحضر إلى أزمنة بدائية تدفعه إلى التحلل الخلقي، ونهر الكونغو (في الرواية) نز الإنسان البدائي الشرير، أما نهر التايمز فهو صورة الإنسان وقد روضته الحضارة الطبيعية"[15].

لقد عمدت هذه الرواية و-غيرها- إلى رسم صورة بدائية للقارة في ذهن المتلقي غير أن الأنا المستعمرة سعت إلى التعريف بذاتها، وإنشاء سردية تنتصر لها ولخصوصياتها التي لم يستطع الغرب فهمها أو ادراكها، فظهرت الرواية الإفريقية كتقليد للرواية الاستعمارية —من حيث الشكل- وكرد فعل عليها-من حيث المضمون- وفي تطالعنا أسماء

أفريقية عديدة ولعل أكثر تللك الأسماء التي تعلق بالأذهان : اسم (تشينوا أتشيبي) ... (Chinua Achebe)حيث تعد روايته "الأشياء تتداعى" (Things fall apart) بمثابة أفضل رد على ذلك، حيث أن فكرتها الأساسية تتمثل في إثبات وجود ثقافة إفريقية أصيلة ومتأصلة من خلال إبراز"أهمية الفرد الإفريقي في صنع تاريخ إفريقيا، ومن ثم حاضرها ومستقبلها، وبعودته إلى الوراء زمنيا إلى فترة ما قبل الغزو الأبيض التي كانت وبالا على الافريقيين"[16] كما أنه "أراد أن يذكر أبناء قارته بالكرامة التي اعتزوا بها، وبضرورة استعادتها والمحافظة عليها"[17] ومن هنا بدأ الاهتمام بالشعوب والحضارات، فتغيرت الصورة البدائية إلى صورة عجائبية، وأصبح للرواية الإفريقية منحى جديد، ارتكز على المثاقفة بين ما بقي من جذور ثقافية، وتداخل مع الثقافة الأجنبية الحديثة.

6- تشينوا أتشيبي "عراب" الرواية الإفريقية:

هو أحد أهم وأشهر الروائيين الأفارقة الذين كتبوا باللغة الإنجليزية ، والذين أعطوا للرواية الأفريقية مكانة واحتراماً على مستوى العالم . فقد نجح من خلال أعماله الأدبية في نقل التجربة الروائية الأفريقية للعالم و بعيون أفريقية واعية ومدركة غيرت كثيراً من المفاهيم والصور الذهنية المغلوطة التي طالما ترسخت في وعي ومدركات الآخرين ؛ فنالت أعماله احترام الأفارقة وإعجاب الغربيين . فأعمال أتشيبي كما يذكر (وول شوينكا) ، الأديب النيجيري الشهير والحاصل على جائزة نوبل في الآداب عام 1986 : " تتكلّم من داخل الشخصية الأفريقية ، بدلاً من أن تصور الإفريقي على أنه شيء غريب وعجيب كما يراه الأبيض."

وتقول عنه (نادين جورديمر) ، أديبة جنوب أفريقيا والحاصلة على جائزة نوبل في الآداب عام 1991 : " له موهبة متألقة وعظيمة ومفعمة بالحماس والثراء". ويصفه الناقد الأدبي بروس كين في مقدمته للأدب النيجيري ، بأنه أول كاتب نيجيري ينجح في ترجمة ونقل الرواية من نمط الفن الأوروبي إلى الأدب الأفريقي. وتعترف الكاتبة (توني موريسون) الحاصلة على جائزة نوبل في الآداب بأنَّ أتشيبي هو الذي أضرم علاقة الحب بينها وبين الأدب

الإفريقي تاركاً أعظم الأثر على بداياتها ككاتبة. "ويرى معظم النقاد أن إنجاز أتشيبي الروائي لا يحد بهويته الإفريقية ، ولذلك يتم النظر إليه كواحد من أفضل الروائيين الذين يكتبون باللغة الإنجليزية الآن .وتعود شهرة أتشيبي في الأساس لكونه روائياً قديراً متميزاً ، ورغم أن أعماله ية قليلة العدد نسبياً ، خمس روايات حتى الآن ، إلا أنها مثلت نقلة نوعية في تاريخ الرواية الأفريقية عامة والرواية الأفريقية المكتوبة بالإنجليزية بشكل خاص ، سواء على مستوى الشكل أو المضمون مما حقق له شهرة واسعة، وبالإضافة إلى أعمال أتشيبي الروائية فقد كتب أيضا أعمالاً شعرية وأخرى نقدية ، كما كتب بعض القصص القصيرة وكتب الأطفال بالإضافة إلى العديد من المقالات ، كما قام بتحرير عدد من الكتب الأدبية .

7- تجليات الذات من خلال الشخوص الإفريقية:

أ-(أوكونكو)الرؤية البطولية للذات الافريقية:

يفتتح الراوي سرده الروائي بكلمة (أوكونكو) تحديدا ، كما أنه يركز على ذكره المتكرر في الفصول الثلاثة الأولى، وفي ذلك إشارة الى محوريته وأهميته في العمل، يتجنب (أتشيبي) وصف شخصية بطله مباشرة، ويفضل أن يلجأ إلى إبراز جوانب التضاد والمقارنة مع أفراد القبيلة "كان أماليز لاعبا ماكرا، بينما كان أوكونكو ماهرا في الانزلاق كما تنزلق السمكة في الماء"[18] ،لينتقل الكاتب بعدها الى وصف البنية الجسدية دون أن يعطي الكثير من التفاصيل عنها فيما عدا إشارات أنه كان "طويلا، وضخما وأن حاجبيه الكثيفين وأنفه العريض أضفى عليه مظهرا صارما جدا"[19].وهذا الشكل أضفى عليه هالة من التبجيل والانصياع، مما جعل الجميع يهابه ....زوجاته، ،أولاده، أو حتى أبناء عشيرته ، فهو المعروف بـ "نار اللهب"، إذ يتمتع ببنية عضلية أهلته لأن ينقض على من تسول له نفسه أن يغضبه، أومن يثيرون اشمئزازه من الضعفاء ومرد ذلك العقدة النفسية التي سببها له والده الذي كان كسولا ومنبوذا، وكذلك ابنه (نووي) الذي خرج عن طوعه. وبهذا يعتبر(أوكونكو) شخصية

قوية وضعيفة في آن واحد، غير أنه يحمل في أعماقه قلبا حنونا من خلال تأثره بموت (أكيميفونا) الفتى الذي رباه، وعطفه على ابنه (إيزينما).

كما تتسم شخصيته بالكرم والعطاء، فهو المزارع الناجح ، والمصارع العظيم، أظف إلى ذلك الألقاب التي حصل عليها ، كما أنه يعد واحدا من الأرواح المقنعة التي تحكم العشيرة. وبالتالي فهو يمتلك مكانة اجتماعية مرموقة غير أنه مندفع في تصرفاته، مما أوقعه في المتاعب آخرها قتله واحدا من أفراد العشيرة خطأ مما حتم عليه النفي، ف (أوكونكو) يكره الخسارة رغم ذلك حاول التأقلم مع منفاه، لكنه لم يتقبل خسارة عشيرته التي رآها تنهار.

يعتقد(أكونكو) أنه سيّد القرية. و في نظرته لنفسه تكمن القوة والسلطان. غايته الوحيدة في الحياة هي الظفر بالسطوة (السلطة) والجاه والشأن. وسرعان ما يغدو هذا الطموح هاجساً ،فيصير أسير هذه الرغبة التي تحركه كيفما شاءت وتدفعه إلى ارتكاب الأخطاء القاتلة بحق جماعته نفسها. ينتهك حرمتها ويعتدي على أفرادها ويتجاوز الحدود المرسومة فيها. هذا الأمر يخلق هوة ما تفتأ أن تتوسع بينه وبين الجماعة إلى أن يقترف جرم القتل. ومن يقتل ينفى في قانون قبيلة (الإيبو).

وفي فترة نفي أوكونكو (التي تستمر سبع سنوات) تصل طلائع البعثات الكولونيالية البريطانية إلى القرية. وبعد عودته من المنفى يرى أن القرية، والقبيلة ،التي عهدهما وعاش فيهما قد تبدلتا تبدلاً كلياً.

يعتبر أوكونكو المستعمرين البريطانيين خطراً على جماعته ويعلن عن رغبته في قتالهم. ولكنه يجد نفسه وحيداً. لا أحد في القرية يدعمه ويقف إلى جانبه. يقول صديقه (أوبيريكا): . "الرجل الأبيض استطاع كسب ود أهل القرية ولم تعد هناك رغبة في قتالهم". ولكن أوكونكو يرفض التسليم بالواقع. وبطريقة مفاجئة يقتل المبعوث الذي أرسلته الإدارة الكولونيالية. (ومن

يقتل ثانية يعدم في قانون الإيبو). يعترف أوكونكو بجرمه ولكنه يرفض الخضوع للقانون وينتحر.

تبرز الرواية مأساة السكان الأصليين الذين يصطدمون بسلطتين طاغيتين لا رادع لهما: سلطة (اوكونكو)، المتغطرس، الذي يفرض نزواته الصارمة على الجماعة من جهة أولى وسلطة القوى الخارجية التي أتت لخلخلة البنى القائمة على الأعراف والتقاليد المتوارثة منذ آلاف السنين من جهة ثانية. و باصطدام شعب ايبو بالقيم التي يحملها المستعمرون معهم , تحت أقدامهم وتتداعى الأشياء من حولهم شيئاً فشيئاً إلى أن ينهار كل شيء.وهنا يبدو وكأن كل شيء ينبغي أن يبدأ من جديد[20].

ب– الذوات الافريقية في تجلياتها الأخرى :

(أوبيريكا) حكمة الرجل الأسود:

هو صديق أوكونكو، ومن زعماء القبيلة، يتمتع بشخصية حكيمة وفذة ، ذو عقل راجح، وكثيرا ما كان يقف إلى جانب أوكونكو في الشدائد، حتى انه ساند في لحظات موته الاخيرة، حيث برز تأثره لموت رفيقه، فيخاطب المفوض قائلا: **"ذلك الرجل كان من أعظم الرجال في (أوموفيا)، لقد دفعتموه الى قتل نفسه سيدفن الآن ككلب..."**[21]، ورغم أنه تعارض مع أوكونكو في موضوع الحرب ضد الرجل الأبيض إلا أنه مثل بالفعل الرجل الأفريقي الحكيم والمتبصر، كمااتسمت شخصيته بالقوة والصمود من خلال تمسكه بتقاليد وأعراف القبيلة، إضافة إلى أنه حظى بعلاقات اجتماعية متميزة سواء في قبيلته أو في القبائل المجاورة.

(نووي)الابن المنهار ...أو انحلال الرجل الأسود :

هو ابن (أوكونكو) البكر، اتسمت معالم شخصيته بالحزن والأسى ، لأن والده كثيرا انهال عليه بالضرب لتصرفاته التي التي ذكرته بوالده الذي لم يترك له غير الديون والعار، هذا الماضي التعيس هو الذي جعله يخشى أن يتكرر الأمر مع ابنه وهذا ماجعل الطرفين متباعدين متنافرين أغلب الأوقات، ، وما زاد حزن (نووي) الابن فراقه للصبي "إكيميفونا"

الذي تربى ونشأ معه ، مما خلق داخله كبتا وجدانيا وعقائديا ، ميزه التشكيك في معتقدات العشيرة، وهو جعله يهجر دينه وعائلته ليلتحق في نهاية الأمر بدين الرجل الأبيض، ولذلك ينبذه أوكونكو ويتبرأ منه لأنه كان يرى فيه العار والاخفاق .

(إيزينما)المرأة الإفريقية في أصدق صورها:

ابنة (أوكونكو)، من زوجته الثانية (إيكويفي)، تتمتع بشخصية محبوبة لدرجة أن والدها دائما ما كان يتمنى لو كانت ولدا، وهي الوحيدة التي تفهم مزاج والدها العصبي، افة الى جمالها وذكائها، رغم معاناتها مع المرض منذ أن كانت صغيرة، غير أنها تستطيع التغلب عليه بإرادتها القوية، وشجاعتها فهي رمز المرأة الإفريقية في أصدق صورها.

ج- تمظهرات الآخر المغاير:

المبشر... الأبيض القادم من بعيد:

ؤلاء القادمن من وراء البحار بهيئاتهم الغريبة ، ببشرتهم البيضاء، وبلباسهم الأبيض...ولكن هل لكل هذا البياض دلالة على مكنونات بيضاء فعلا؟

المبشر (كياجا):

من أوائل المبشرين الذين بدأوا في نشر المسيحية بـ"**مبانتا**"، حيث قام ببناء كنيسة في غابة الشر، واعتبر مسؤولا عن الرعايا التي انضموا لديانته الجديدة .يتمتع بقدرة على الإقناع، حيث استطاع أن يقنع (نووي) على هجر عائلته، وذلك ما افصح عنه صراحة قائلا: "طوبى للذي يهجر أباه وأمه من أجلي إن الذين يسمعون كلماتي هم أبي وأمي"[22] هذا الاقناع المصحوب بالمودة البالغة، والبعد التام عن العنف والقوة(بعكس أكونكو)،هو الذي سحر اهل القبيلة وجعلهم يفتتنون به، فمعاملته كانت تقوم على التروي في جميع سلوكاته وأقواله، كما كان موقفه حازما، حيث كان يظهر ذلك الثبات والالتزام كلما استلزم الامر وخاصة إذا تعلق الأمر بالكنيسة التي هو أصلا في خدمتها.

المبشر (براون):

هو الواعظ والمبشر في قرية (أوموفيا)، حيث "كان حازما جدا في كبح رعيته عن استثارة غضب العشيرة"[23] من خلال المعاملة الحسنة وعدم اللجوء الى القوة، مما جعله يحظى باحترام كبير، إضافة إلى علاقات الصداقة التي تكونت بينه وبين زعماء العشيرة، مما جعلهم يهدونه "رمز النبل وسمو المقام"[24] وهو عبارة عن "ناب فيل منقوش" وكثيرا ما كان يتناقش مع الأهالي حول الدين في محاولة لاقناعهم بغية العدول عن دين أسلافهم.و استطاع فعلا أن يستميل أعدادا كثيرة إلى صفه، ، ، وكانت آخر محاولاته أن يدعو (أكونكو) للانظمام إلى باقي الركب المسيحي، إلا ان هذا الأخير وبطبعه الحاد يطرده شر طردة، وفي ذلك دلالة قوية على رفض هذه الديانة ورفض هذا الآخر الوافد مهما كانت صوره.

المبشر جيمس:

هو المبشر الذي خلف براون بعد رحيله، يختلف عنه كثيرا حيث أنه "يرى الأشياء بالأسود والأبيض، الأسود شر، ويرى العالم ساحة قتال يشتبك فيها أبناء النور في معركة حياة أو موت مع أبناء الظلام"[25] هذه النظرة العدائية هي التي دمرت كنيسته من خلال إخفائه لـ "إينوتش" في بيته، ومحاولاته المتكررة للدعوة المتعصبة، وعدم التعامل برفق مع أبناء القبيلة.فهو و بشخصيته المتعالية المتكبرة نفر أهل القبيلة من حضوره ، هذا ما جعله يشتكي لمفوض الشرطة الذي عاقب زعماء القبيلة. وهذا ما سيكون لاحقا نحسا ووبالا على المبشرين.

اليد الحديدة للمستعمر المخاتل:"مفوض الشرطة":

إنه الآآخر في أبشع صوره : المخادع ، المتسلط، المجرم، المخادع الذي الذي استطاع قادة وزعماء القبائل ، ليفتك بهم لاحقا بعد تعذيبهم واذلالهم، إنه المستعمر في صورته الحقيقية البشعة التي لم تستطع المظاهر السابقة ان تمحو همجيته واستعباده.

سعاة المحكمة:

يطلق عليهم الاهالي اسم (الكوتما) لانهم وبسراويلهم الرمادية القصيرة ،حملوا للقبائل الدمار والحزن ، صورة اخرى للأبيض الذي جعل "الاشياء تتداعى وتنهار" كما رآها أتشيبي بعين افريقية فاحصة ومتأملة وأيضا متألمة في الوقت ذاته،متألمة للخراب والدمار الذي حمله هذا الابيض والذي جعل أكونكو يفضل ان يضع حدا لحياته على أن يستسلم ويلقى مصيرا مجهولا.

8- تقييم التوجهات الإيديولوجية والرؤى الصورولوجية للروائي بين "نظرته للذات الإفريقية وتصويره للآخر":

- قدم لنا أتشيبي صورة مجتمع (الإيبو) التقليدي في جميع أنحاء الحياة ليصل إلى تصوير بات تغلغل الرجل الأبيض إلى ذلك المجتمع، حيث يترك في نهاية المطاف للقارئ الحكم الأخير مبرزا في ثنايا شخصياته سياسة المستعمر في تداعي هذا المجتمع.

- جاءت شخصية أوكونكو مهيمنة على القصة، حيث تقدم في صورة تراجيدية وهو البطل المحارب الذي يتمتع بمكانة مرموقة في قبيلته، والتي كانت موضع الفخر بتقلده لقبين في عشيرته، تضطره التطورات التي لحقت العشيرة بفعل التغيرات التي أدخلها الرجل الأبيض إلى الانتحار.

- استطاع أتشيبي أن يعبر عن انهيار وتداعي مجتمع تقليدي كمأساة فردية وعامة في الوقت نفسه، وما زاد عنده من حدة التداعي هو إحساسه الداخلي بالأسى تجاه الأوضاع التي آلت إليه أوموفيا، وضعف رجالها. الشخصية التي عاشت حياتها تنبذ الضعف والفشل ،وتتسم بالشجاعة، لم يتحمل أن يري قبيلة تزول إلى جانب الإهانة التي تلقاها في السجن، وتدنيس المعتقدات الدينية للقبيلة من قبل المعتنقين لديانة الرجل الأبيض هذا ما دفعه إلى قتل المبعوث هادفا إلى دفع قومه إلى خوض الحرب غير أنه سمع أصوات تقول: **"لماذا فعل**

هذا"[26] حينها عرف أن قومه لن يحاربوا وفضل أن يمت بكبرياء، فلن ينتظر الرجل الأبيض يقتله.

– تحولت هذه الذات من ذات قوية إلى ذات منبوذة، خاصة وأن قوانين القبيلة تنبذ الشخص الذي يقتل نفسه. غير أن أشيبي اعتبر هذه الذات تمثيل للحضارة الوطنية الرافضة للمذلة والتي تدافع عن كينونتها.و في مقابل ذلك نجد نووي ابن (أوكونكو) الذي خرج عن دين قبيلته ليلتحق بديانة الرجل الأبيض بسبب كبت داخلي تجسد في سؤال ظل يراوده منذ رحيل (أكيميفونا)، هذا الطفل الذي تربي معه في بيت أبيه لمدة ثلاث سنوات ليتم قتله فيما بعد باعتباره تكفيرا عن قتل زوجة أودو أحد شيوخ القبيلة. وجد نووي إجابة لسؤاله حيث: "أسره شعر الدين الجديد، شعر أحس به في نخاعه، بدت ترنيمة الأخوة الذين يجلسون في الظلمة، والخوف كأنها تجيب على سؤال غامض، سؤال عن التوأمين اللذين يصرخان في الغابة، وسؤال عن (أكيميفونا) الذي قتل"[27] وهذا الضعف هو الذي استماله إلى الدين الجديد، إلى جانب ذلك نجد النساء اللاتي حرمن من أطفالهن التوأم في إطار معتقدات القبيلة، كن من أوائل العناصر التي انضمت إلى الدين الجديد، وهكذا صور أشيبي الذات الضحية بكل نوعية، مبرزا نقاط الضعف داخل بنياتها متناولا الأوجه ا 'نسانية التي سادتها بمنطق وحكمة. هناك تيارات أخرى داخل الذات الوطنية، منها صديق البطل أوبيريكا وهو الشخصية التي تمثل العقل المتأمل في أمور العشيرة. حيث يذهب إلى حد بعيد في تأمله، أي إلى حد إنكار المعتقدات السائدة، ولكنه أكثر حساسية للوجه الإنساني في أحكام القبيلة دون وجهها القبيح تجلى هذا الموقف عندما أخبر (أوكونكو) بأن لا يشترك في قتل الصبي (إكيميفونا) مع علمه أن ذلك كان قرار ربة الأرض وهو الشخصية الحكيمة التي تنذر بأن أية مقاومة للكنيسة تعني مقاومة أبناء العشيرة الذين استمالهم الدين الوافد. كذلك وقوفه إلى جانب صديقه في آخر لحظة، حيث في المشهد الختامي يقود المفوض وجنوده إلى موضع

انتحار (أوكونكو)، ويطلب منهم انزاله ا لدفنه، حيث أن معتقداتهم تمنع على أبناء العشيرة لمسه، وهذا ما يدل على أن قيم القبيلة لا تزال راسخة في أبنائها، وهنا يصور أشيبي الذات القوية غير مستسلمة، والتي تعبر عن الضمير الجمعي. يصور أشيبي كذلك الشخصية الإفريقية (اينوتش)، هذه الذات المنقلبة والمتخطية لمعتقدات القبيلة، من خلال ما قام به وهو خلع القناع على الأرواح علانية، وهذا الفعل الشنيع تدنيس لقيم العشيرة بأكملها. وفي هذا الصدد يشير أشيبي إلى تأجج الصراع وإثارة مشاعر العداء تجاه الكنيسة، وكذلك مدى تأثير الدين الوافد على الأفراد.

– اختلفت الذات عند الكاتب باختلاف موقفها، وأفعالها ،وحتى كينونتها الداخلية حيث حملت توجهات متناقضة كما اختلف الآخر أيضا الذي يظهر تارة في صورة من لا يصطدم بالمعتقدات التقليدية، أو من يكن احتقارا لها، وقد يكون القادر على صناعة علاقة بالسكان الأصليين، فهو ليس فقط متنوعا وإنما تكميلي يكمل بعضه البعض ويشمل ذلك الإرساليات التبشيرية، والحكم الأجنبي، والسجن. يرصد أشيبي التغلغل المسيحي في معتقدات أبناء الإيبو بكل حساسية وموضوعية ،إذ يصور بداية ظهور الرجل الأبيض في شكل رسول لقرية أيامي التي أبدت مقاومة ، فكان مصيرها الزوال النهائي، وفي هذا يبين لنا أشيبي سياسة المستعمر التي تبحث عن سبب بسيط لتستعمل القوة والعنف. يستمر الزحف للآخر في شكل إرساليات تبشيرية، حيث يصل المبشرون إلى مبانتا لتبرز هنا شخصية (كياجا) والذي يخاطب أبناء العشيرة حول الدين الجديد مستخدما أسلوب التعايش من خلال بناء كنيسة وزياراته المتعددة لزعماء القبيلة. وكذلك شخصية السيد براون، وهي الشخصية التي صورها أشيبي بعيدة عن الغضب والعنف، حيث أراد أن ينسل إلى قلوب وأذهان قرويين عن طريق لمعتقداتهم الدينية، وتقريبه لفكرة الإله الواحد إليهم، إذ استطاع أن يستميل أعدادا غفيرة إلى دينه. وفي كلتا الشخصيتين نلمس صورة المستعمر في تغلغله تحت غطاء التبشير

المسيحي ويواصل أشيبي تصويره للمدرسة، والحكومة، ومفوض الشرطة، والسجن، أي استقرار المستعمر في تلك المناطق.

– صورة السيد "سميث" الذي يأخذ مكان السيد "براون" عند رحيله، وفي هذا التغيير تبرز صورة السلطة، والاستيلاء، حيث أن شخصية "سميث" تختلف في تعاملها مع أفراد القبيلة ليستخدم العنف أحيانا، وأسلوب المراوغة أحيانا أخرى، وهنا يصور أشيبي حقيقة المستعمر، ؛ عندما تعرض زعماء العشيرة إلى الإهانة عندما تم هدم الكنيسة من خلال ضربهم ضربا مبرحا، وحلق شعر رؤوسهم ، هنا يتجلى التصادم ،وتعددية العلاقة بين الطرفين، حيث لا يدين أشيبي المسيحية، ولا يمدحها إنما يحاول عقد مقارنة بين الأديان ويبرز الفروق بدقة من خلال الصداقة التي تجمع السيد "براون "و"أكونا" أحد زعماء العشيرة في محاولة كلاهما إلى هدي الآخر الى دينه.

– إذ ما حاولنا إبراز نظرة الأنا للآخر نجدها تتسم بعدم الرغبة في التعايش معه ورفضه من خلال تقديم لهم غابة الشر كقطعة أرض ، لبناء كنيسة فيها عندما طلب المبشرون ذلك منهم . على اعتبار أن غابة الشر هو الوعاء الذي ترمي فيه العشيرة مهملاتها وعدم المرغوبين فيهم. أما نظرة الآخر للانا نجدها تتمظهر في نبذ المعتقدات الدينية للقبيلة من خلال محاولة تجريد العشيرة من كينونتها وخصوصيتها ،عبر ثغرات الفكر التقليدي تحت غطاء التبشير المسيحي الهادي إلى طريق النور، وإحلال حضارة في إفريقيا، كما جاء في ذهن المفوض الذي خطط لكتابة كتاب متخذا من انتحار (أوكونكو) فصلا في كتابه الذي عنونه بـ "تهدئة القبائل البدائية في حوض النيجر السفلي" وقد ختم أشيبي روايته بكلمة "بدائية "التي تعتبر تعليقا ساخرا على الموقف الاستعماري من إفريقيا، خاصة وأن الفصول الأولى للرواية قد حملت القارئ إلى حياة جماعة تتسم بدرجة من التمييز، والتنظيم ،والتماسك الحضاري.

خاتمة:

حاول (أتشيبي) من خلال روايته أن يصحح بعض المفاهيم المشوهة والمغلوطة وبعض الأحكام المسبقة، التي حملها هو عن الآخر أو حملها الآخر عن أهله وعشيرته ، وأفضل إجابة عن كل ذلك يلخصها (أتشيبي) بروعة في هذا المقتطف الذي جاء فيه: "لم أر نفسي كإفريقي في تلك الكتب. لقد اصطففت مع الرجال البيض ضد المتوحشين. وبكلمات أخرى، عبرت المستوى الأول من تعليمي وأنا أظن بأنني من حزب الرجل الأبيض في مغامراته المثيرة ومساربه الضيقة. كان الرجل الأبيض طيباً وعقلانياً وذكياً وشجاعاً. أما المتوحشون المجتمعون ضده، فكانوا شريرين وحمقى، ولا يعدون كونهم ماكرين. لقد كرهت سماتهم ، لكن عندما وصلت إلى السن المناسب وأدركت أن أولئك الكتاب قد خدعوني. أنا لم أكن شخصاً على قارب "مارلو" الذي يمخر نهر الكونغو في (قلب الظلمات)؛ وإنما كنت، بدلاً من ذلك، واحداً من تلك الكائنات غير الجذابة التي تتقافز صاعدة وهابطة على ضفة النهر، تعلوها وجوه بشعة ومروعة".

الهوامش:

1. مدام دوستايل Mme de Staël 1766 – 1817- ناقدة فرنسية وروائية شهيرة في مطلع القرن التاسع عشر .أثر عملها الأدبي في ازدهار المذهب الرومانسي في الأدب الفرنسي، وهي من أوائل الذين اهتموا بما يعرف بالدراسات الادبية المقارنة. . وفي كتابها عن ألمانيا قدمت الثقافة الألمانية والمفكرين العظام مثل (فريدريتش شيلر- غوته-) إلى أوروبا كنموذج يحتذى به ، راجع : ماجدة حمود، مقارابات تطبيقية في الأدب المقارن- موقع اتحاد الكتاب العرب بسوريا، الرابط: www.awu-dam.com بتاريخ 14-05-2014
2. ماجدة حمود: صورة الآخر في التراث العربي، منشورات الاختلاف، الجزائر 2010،ص 9
3. المرجع نفسه، ص10
4. عبد المجيد حنون، صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986، ص 61.

5. جابر عصفور، المرايا المتجاورة، دار قباء، مصر،1998، ص 90.
6. عبد المجيد حنون، المرجع نفسه، ص 82.
7. المرجع نفسه، ص 69.
8. ماريوس فرنسوا غويار، الأدب المقارن، ت: هنري زغيب، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ط 2، 1988، ص 28.
9. المرجع نفسه ، ص 27.
10. عبد القادر شرشار: المرجع نفسه ، ص 150
11. جميل حمداوي: صورة جدلية الأنا والآخر في الخطاب الروائي العربي، موقع صحيفة المثقف، العدد 1440، بتاريخ:2010/06/27 .
12. عبد القادر شرشار: المرجع نفسه، ص 148 – 149.
13. إدريس الخضراوي: الرواية العربية وأمثلة ما بعد الاستعمار، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، 2012، ص 89.
14. المرجع نفسه، ص 84.
15. حاج ابا آدم الحاج: دور الأدب الإفريقي في التحرر الوطني، ، موقع جامعة السودان ، بتاريخ: 12-07-2013
16. حسام الخطيب : مجلة الآداب الأجنبية، ،اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 38، 1984، ص 242،
17. المرجع نفسه: ص 243.
18. تشينوا اشيبي: الأشياء تتداعى، الرواية ت: أنجيل بطرس، الهيئة العاة للتأليف والنشر 1971، ص 8.
19. المصدر نفسه، ص 9.
20. نزار آغري: الأشياء تتداعى...موقع الهيئة العامة للاستعلامات المصرية: www.sis.gov.eg/ar/Story.aspx?sid=3460 بتاريخ: 06-07-2013
21. 27 تشينوا اشيبي: الأشياء تتداعى، الرواية ص ص: 122
22. الأشياء تتداعى.ص192
23. الأشياء تتداعى.ص193

24. الأشياء تتداعى.ص198
25. الأشياء تتداعى.ص219
26. الأشياء تتداعى.ص221
27. الأشياء تتداعى.ص222